

كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القديس يوسف في بيروت، في افتتاح المعرض المميّز الذي يحمل العنوان التالي : "تاريخ وذاكرة : ١٩١٨-٢٠١٩ : لبنان والحرب الكبرى والمجاعة الكبرى"، يوم السبت الواقع فيه ١٦ شباط (فبراير) ٢٠١٩، في الساعة السادسة مساءً، في سفارة لبنان في باريس (فرنسا).

سعادة السفير،

أعزّاءنا اللبّانيين وأصدقاء لبنان، مساء الخير،

في هذا المساء، نلتقي مرّة أخرى في السفارة اللبّانية في باريس، وهو مكان رمزيّ للغاية ويحمل منذ تاريخ ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٥ صوت لبنان واللّبانيين في فرنسا. واليوم، يواصل السفير رامي عدوان الذي يستقبلنا هذه المهمّة ببسالة. إنّها للحظة مفعمة بالفرح أن نلتقي بكم ونحييكم، برعاية سفيرنا بالطبع، خريج مدرسة سيّدة الجمهور والذي يسرّني أنّني كنتُ آنذُ رئيس المدرسة وما زال الصديق الدائم وهذا هو الأهمّ.

يستعيد سفيرنا العزيز رامي عدوان الذكرى المئويّة للحرب العالميّة الأولى في الأعوام ١٩١٤-١٩١٨، وهي حرب إستمرت عواقبها حتّى العام ١٩٢٠، وقد أراد إحياء ذكرى مأساة المجاعة الكبرى في جبل لبنان التي بدأت في العام ١٩١٥ واستمرت حتّى العام ١٩١٨ والتي لم تُذكر إلا ببضعة أسطر في كتب التاريخ. وهكذا، انتقل معرض يضمّ ١٠١ وثيقة من محفوظات جامعة القديس يوسف واليسوعيّين في بيروت إليكم وها هي الوثائق تُعرض أمامكم ولأجلكم. لقد قيل إنّ النسيان هو علاج للقلب، لكنّ النسيان هو عدوّ للتاريخ عندما يتعلّق الأمر بالتذكّر، واستعادة الذكريات، والإلتزام بقضيّة مشتركة.

تأثّر سكّان الإمبراطوريّة العثمانيّة بشكلٍ كبير بالحرب العالميّة الأولى. كانت الإبادة الجماعيّة الفظيعة التي كان الأرمن ضحيّتها مصحوبة بالمأساة الصامتة التي رزح لبنان تحت وطأتها خلال المجاعة الكبرى التي اقترنت، بالإضافة إلى الخبز المفقود، بغزو الجراد القادم من الصحراء اللبّيّة، مشكّلاً سحابة سوداء خسفت الشمس وزرعت الذعر بين السكّان من ١٣ نيسان (أبريل) حتّى نهاية حزيران (يونيو) ١٩١٥، متلفّة المحاصيل وكلّ ما كان أخضر. كانت جدّتي تخبرني أنّ السماء كانت حالكة السواد مثل الفحم من جزاء كثرة عدد هذه الحشرات الكبيرة التي كانت بحجم الطيور. بالإضافة إلى ذلك، كانت رائحتها نتنة بحيث كان الإنسان يُصاب بالتشنّجات والصداع من رائحتها.

المجاعة الكبرى هي قصة معاناة كبيرة ضربت الموتى والناجين أيضًا. كان جدّي الذي كان يفّر من كسروان ليجلب كسرة الخبز من عّگار يذكر كيف مات طفله من الجوع على ظهره وكيف كان عليه أن يحفر حفرة يواريه فيها، ويصنع صليبًا من القصب يضعه عليها ثم يغادر بسرعة لإنقاذ الآخرين الذين كانوا لا يزالان على قيد الحياة. لقد تمّ الإقرار بهذه المعاناة في مؤتمر السلام في فرساي Versailles في العام ١٩١٩. يشير أقلّ تقدير إلى ما يقارب ٨٠,٠٠٠ ضحية، في حين تشير أعلى التقديرات إلى وفاة ثلث سگان جبل لبنان، أي ما يقارب ٢٠٠ ٠٠٠ قتيل.

اليوم، بعد مرور قرن، لا يزال اللبناييون يعانون بسبب النزاعات في الشرق الأوسط وخاصة في سوريا وفلسطين، حيث تتراكم المصائب وتثقل ذاكرة الشعب الجماعية.

إنطلاقًا من واجب التذكّر هذا حصلت جامعة القديس يوسف في بيروت، ومنذ ثلاث سنوات، على موافقة بلدية مدينة بيروت لإنشاء ساحة تُستدّكر فيها المجاعة الكبرى. لقد أصبحت هذه الساحة واقعا ملموسا، وهي تقع في بيروت، مقابل حرمي الطب والعلوم الإنسانية الجامعيين في قلب شارع الشام. إنّها تقع أيضًا بجوار السفارة الفرنسية، كرمز للصدّاقة بين لبنان وفرنسا. النصب التذكاري عبارة عن شجرة تحمل كلمات وآلام وآمال أيضًا وقد قام بنحتها النحات والرسام يزن حلواني. "شجرة الذاكرة" تحمل في طياتها ذكرى هذا الشعب المحطّم والمنسي. تتكوّن أوراقها من مقتطفات من أعمال العديد من الكتّاب المعاصرين للمجاعة الكبرى مثل جبران خليل جبران، وتوفيق يوسف عوّاد وعنبرة سلام الخالدي، فضلًا عن آخرين عدّة. هذه الساحة، فضلًا عن شجرة الذاكرة، تُعرضان في هذه الأمسية في إحدى صور المعرض. إنّها في الواقع الصورة ١٠١، وهي الصورة الملونة الوحيدة... وهي واجب ينبع من الذاكرة وهي قبل كلّ شيء رسالة سلام.

في الختام، وفي حين أشكر سعادة السفير لأنّه جعل جامعتنا شريكة هذا المعرض وأطلب من كريستيان توتل، رئيس قسم التاريخ في جامعة القديس يوسف، أن يدير هذا المعرض وإلى السيد فالديمار فضّول أن يقيمه، تتبادر إلى ذهني جملة من جبران خليل جبران يعلّق فيها على المأساة، قائلاً: "ماتوا لأنّهم لم يظلموا الظالمين، ماتوا لأنّهم كانوا الأزهار المسحوقّة ولم يكونوا الأقدام الساقطة." (١٩١٧). اليوم، يسعى الشعب اللبناي إلى السلام القائم على العدل والعيش معًا، لأنّ لبنان، أكثر من أيّ وقت مضى، هو مرادف للسلام وحبّ البقاء على رغم كلّ عواصف الوقت الراهن وصعوباته التي تجتاحه.